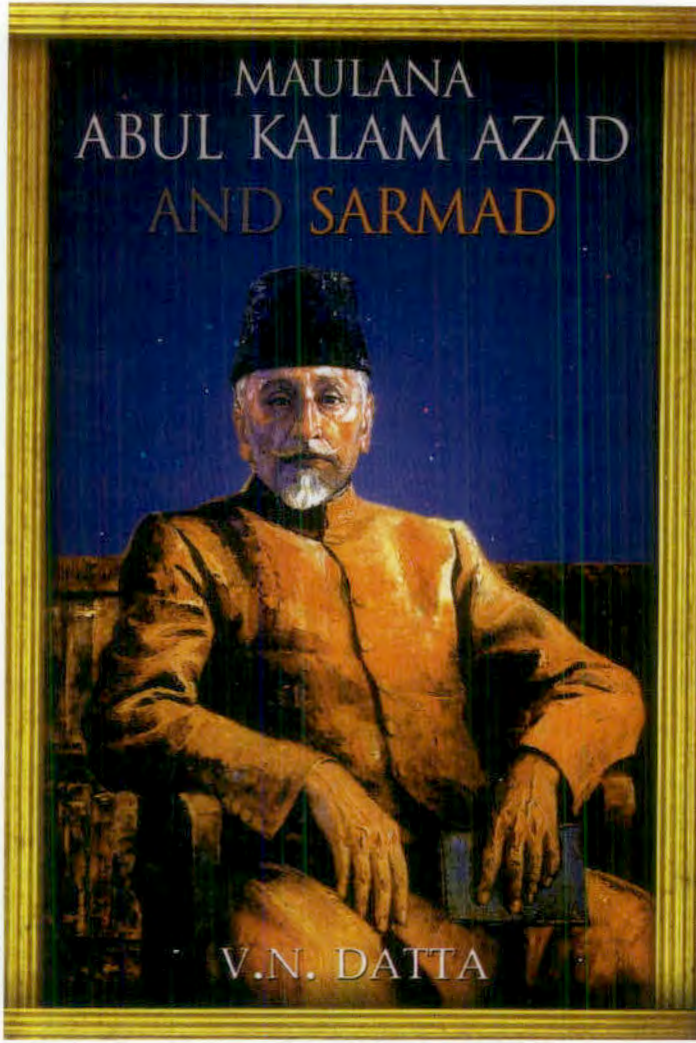




زاد اهتمام الباحثين هذه الأيام بدراسة الأدب العربي في شبه القارة الهندية، وصدرت دراسات مختلفة عن شعراء الهند وأدبائها ممن كتبوا بالعربية شعرا ونثرا في موضوعات قد تكون تقليدية، بعد أن وضع أدباء الهند أمامهم نماذج من الشعر العربي كانت متداولة في الهند، لكن ما يهمنا هنا هو استشهاد أدباء الهند بالأشعار العربية في كتاباتهم باللغة الأردية.

شواهد الشعر العربي في الأدب الهندي أبو الكلام آزاد نموذجا

ولد أبو الكلام آزاد بمكة المكرمة لأب هندي وأم عربية حجازية، ووصل إلى الهند مع أبيه سنة ١٨٩٨م وعمره لا يتجاوز العاشرة، وحين شب عوده برع في الآداب الشرقية وأصدر أكثر من صحيفة باللغة الأردية كانت عناوين معظم مقالاتها الأردية باللغة العربية.



د. سمير عبد الحميد - الياباني

ونضع أمام القارئ نموذجا فريدا من نوعه هو الأديب الهندي «أبو الكلام آزاد» الذي نال اهتمام الدارسين العرب، فكتب عنه الدكتور عبد المنعم النمر كتابا ضخما بعنوان «أبو الكلام آزاد»، وصدر عنه العديد من البحوث والدراسات بالعربية وغيرها.

محطة أحمد نكر... لكن هل ينتهي سفرنا بالوصول إلى أحمد نكر؟ إن سفرنا يبدأ من أحمد نكر، وهكذا تذكرت رغما عني لامية أبي العلاء:

(فيا دارها بالخيف إن مزارها)

قريب ولكن دون ذلك أهوال)

ومن العجيب أنني شاهدت كل الأماكن التاريخية في الهند لكن لم يحدث أن شاهدت قلعة أحمد نكر الأثرية، وقد جئت إلى بمباي مرة وعقدت العزم على زيارتها لكن الظروف لم تمهلي.. إن بمباي مملوءة بالمناطق والأماكن الخاصة التي ارتبطت أسماؤها بحكايات الثورات عبر القرون... فمن بين معارك أحمد نكر هذه كانت معركة الرجولة والشجاعة التي خاضها عبد الرحيم خان خانان (أحد الأمراء في عهد الإمبراطور أكبر وجهانكير)، وأظهر فيها شجاعة نادرة أمام كثرة جيوش الأعداء، رافضا الاستسلام قائلا: على جيشنا..

(ونحن أناس لا توسط بيننا)

لنا الصدر دون العالمين أو القبر)

وأدينا أبو الكلام آزاد يستشهد هنا بشعر أبي فراس الحمداني، ثم يكمل رسالته هكذا: «ومن هنا تجددت فجأة ذكريات أحمد نكر بينما كان القطار يسرع يقطع الطريق، يمضي من واد إلى واد، لا يترك أمام أعيننا منظرا واحدا على حاله، بينما كانت أحداث التاريخ تتابع مسرعة على صفحات ذاكرتي...».

وفي رسالة من داخل سجن القلعة كتب آزاد ما يأتي:

«... هذه هي التجربة السادسة لي في حياة السجن والحبس، كانت التجربة الأولى سنة ١٩١٦م وبقيت أربع سنوات في الحبس، ثم كانت تجربة سنة ١٩٢١م، وسنة ١٩٢١م، وسنة ١٩٢٢م، وسنة ١٩٤٠م، ثم هذه التجربة.. ووصل مجموع سنوات الحبس الخمس سبع

تعرض للسجن أكثر من مرة، ومن داخل السجن كتب رسائل أدبية إلى أحد أصدقائه جمعت وصدرت في كتاب بعنوان «غبار خاطر» أي خواطر، أو شذرات خاطر، ومن رسالته التي كتبها في أغسطس ١٩٤٥م ما يلي:

«كنت أبحث في سوق الحياة عن الكثير من أنواع المقاصد لكنني ابتليت بالبحث عن متاع جديد، وأقصد أنني الآن أبحث عن صحتي التي ضاعت. وصلت هنا أواخر الشهر الماضي وبقيت ثلاثة أسابيع فلنا مني أنه يمكنني أن أجد أثرا لصحتي الضائعة، لكن رغم بحثي لم أجد أثرا للمتاع الضائع، وهكذا وصلت إلى «سرينكر» حيث أقيم الآن. إنك لم ترسل الأشعار التي وعدت بإرسالها، لكنك فتحت علي كتابا كاملا وعلى كل حال:

(قليل منك يكفيني ولكن)

قليلك لا يقال له: قليل)

وبعدها بأيام كتب أبو الكلام آزاد إلى الصديق نفسه رسالة جاء فيها:

«وصلنا إلى أحمد نكر في الساعة الثانية، وبعد ربع ساعة حبسونا في القلعة، والآن هناك مسافة سنوات طوال تحول بين ما كان خارج القلعة في تلك الدنيا وبين ما هو في داخل القلعة في هذه الدنيا ف:

(كيف الوصول إلى سعاد ودونها)

قلل الجبال وبينهن حتوف)

وقد استيقظت في اليوم التالي كمادتي في الثالثة صباحا، وأدوات الشاي التي تبقى معي دائما في السفر كانت قد وصلتني أيضا مع بقية أمتعتي.. وهكذا نفخت في الشاي واضعا الفتجان أمامي، غارقا في أفكار..».

وفي رسالة كان كتبها في أغسطس من عام ١٩٤٢م كتب ما يأتي:

«كان القطار قد مضى بنا وكان اسم «أحمد نكر» يتردد على لسان كل إنسان، لأنهم لم ينزلونا في بلدة «بونا» وهكذا لم يعد في هذا الخط سوى المحطة الأخيرة



سنوات وثمانية أشهر... لقد وصلت إلى هذه المرحلة التي تكشف لي فيها هذه الحقيقة، وهي أن أي صراع بين العلم والدين ليس في الحقيقة صراعا بين العلم والدين، بل هو من صنع من يدعون العلم، ونتيجة تمسك من يدعون الدين بالشكليات دون المضمون، أو أن العلم الحقيقي والدين الحقيقي يمضيان كل منهما في طريقين منفصلين لكنهما يصلان في النهاية إلى هدف واحد:

(عبارتنا شتى وحسبك واحد)

وكل إلى ذاك الجمال يشير)

فالعالم يتعلق بعالم المحسوسات، بينما الدين يخبرنا بما وراء المحسوسات، وتتعدد دوائر كل منهما، لكن ليس بينهما تعارض...

وكتب آزاد يشرح أثر تربية والده في تعوده على الاستيقاظ المبكر لصلاة الفجر وتلقي العلم:

«لم أكن قد بلغت الحادية عشرة من عمري حين تأصلت بداخلي هذه العادة الطيبة، كنت أستيقظ مبكرا، وأوقد الشموع وأستذكر دروسي، وكنت أتوسل لإخوتي حتى يوقظوني إذا ما طلع الفجر.. وهكذا تأصلت هذه العادة في جميع معاملاتي في حياتي التالية فقد:

(أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى)

فصادف قلبا فارغا فتمكنا)

إنني أكتب هذه السطور في خلوة عالم الوحدة، أتمتع وأستمتع كثيرا وكأنه لا يوجد من أحد غيري على وجه هذه الأرض في هذه الساعة..»

وآخر ما نشير إليه هنا تلك الرسالة التي كتبها في ٢٩ أغسطس عام ١٩٤٢م يعبر فيها عن قسوة تجربة الحبس في السجن، ومع هذا ورغم حرمانه من الراحة الجسدية فيمكنه أن يقضي حياة مطمئنة هادئة: «.. حالتي هذه المرة تختلف عن حالتي في المرات السابقة، فهذه الحالة رسمت شكلا لحالة أخرى، فجميع الصور في الخارج لم تختف فقط عن النظر لكن الأصوات



أيضا انقطعت فجأة، وقد ورد في ذكر أصحاب الكهف (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) وهكذا فقد طرأت عليّ حالة الضرب على الأذان تلك، وكأن الدنيا التي كنا نعيش فيها لم تعد هي تلك الدنيا:

(كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا)

أنيس وثم يسمر بمكة سامر)

وهكذا استشهد أبو الكلام آزاد بهذا البيت لعمرو بن الحارث، ثم كتب يشير إلى حالته هكذا:

«فقد جاؤوا بي فجأة إلى دنيا جديدة، وحسوني في دنيا مساحتها الجغرافية لا تزيد على مائة ذراع، وعدد سكانها لا يزيدون على خمسة من أشباه الأحياء، وكل صباح تطلع الشمس على هذه الدنيا، ثم تغرب، فتنتشر الظلمة فيها كل مساء، وكما يقول شاعر الأردنية:

(لم تعد الأرض هي الأرض، ولا السماء هي السماء)

وجميع هذا يدل على ما بلغه تأثير الأدب العربي في آداب الشعوب الإسلامية، ومنها الأدب الهندي الذي عرضنا منه بعض النماذج التي تدل على ذلك ■